إثراء المعارف الرقمية

بريد الجمعة

بريد الجمعة

الجمعة ٢٠ فبراير ١٩٩٨

يكتبه : عبد الوهاب مطاوع

# الكأس المتلئة !

ليست هذه أول رسالة أكتبها إليك، فلقد كتبت لك أكثر من مرة وأرجو أن تلقى رسالتي هذه المرة العناية اللازمة لديك لأهمية ما أتوقعه منك بالنسبة لحياتي وسعادتي ومستقبل أسرتي.. فأنا وبدون تفاصيل كثيرة عن شيء ... حتى لايعرفني القريبون مني، رجل ارتبطت منذ سنوات بزوجتي بالطريقة التقليدية، وتم عقد قراننا، واستمرت الخطبة بعد القران ست سنوات كاملة لعدم حصولنا على شقة للزواج فيها، وقد وجدت في زوجتي هذه منذ عرفتها الجمال والرقة والعفوية والطاعة.. إلى جانب تنازلها الكامل عن جميع أحلامها السابقة كفتاة بالنسبة لمتطلبات الزواج، تقديرا لظروفي، وبالرغم من ذلك فلقد كان هناك حاجز منيع بيني وبينها صنعته بنفسي لكي أكون سيد الموقف معها دائما. ونظرا لطول الخطبة فقد أعلنت أسرتها أكثر من مرة تذمرها من هذا الوضع وتحملت هي ذلك بلا شكوى وسعت لكي يتيسر لنا الزواج إلى الحصول على عقد عمل بدولة عربية، وطلبت مني أن أسافر معها كمحرم لها، فرفضت ذلك وتخليت عنها، فسافرت هي إلى عملها مصطحبة معها خالها بدلا مني، ومن هناك أرسلت لي مبلغا من المال لدفعه كمقدم للشقة المطلوبة، ثم رجعت إلى مصر في أجازة وتمت تصفية المشاكل التي نشبت بين أسرتها وأسرتي بسبب تأخر الزواج، وقبلت بالسفر معها على أن يتم زفافنا حيث تعمل، وسافرنا إلى هناك بالفعل وبدأنا حياتنا الزوجية في الغربة، فازداد الحاجز المنيع بيني وبينها ووجدتني دائم الصمت معها.. وعابسا.. وأفتعل الخلافات معها حول أتفه الأشياء، وأخاصمها كثيرا بل ويحلو لي خصامها لأول بادرة خلاف، وتحاول هي مصالحتي وتكرر المحاولة في استعطاف ورجاء، لأننا كما كانت تقول في غربة، وليس لها فيها سواي، فأزداد عنادا معها وخصاما واتهمها بأنها عديمة الكرامة لمحاولتها الاقتراب مني وأنا أتباعد عنها، وهكذا إلى أن ترجع الأحوال بيننا إلى طبيعتها بعد فترة طويلة أو قصيرة.

ولم أوفق في الحصول على عمل في الغربة بسهولة.. فلم تشعرني أنني لا أعمل وأنها وحدها عائل الأسرة، وإنما أعطتني مطلق الحرية في التصرف في مرتبها من عملها، وسعت في الحصول لي على عمل عن طريق زميلاتها في عملها ووفقت بالفعل في الحصول على عمل مناسب، وواصلت زوجتي إقبالها علي وحنوها معي وكأنني ابن لها وليست زوجها، فإذا نمت بغير عشاء أيقظتني من نومي بالحاح وأصرت على أن أتناول طعام العشاء، وإذا تأخرت في العودة للبيت في النهار وجدتها لم تتناول طعام غدائها انتظارا لي مهما كان موعد عودتي متأخرا، ومع ذلك فقد كانت فترات صمتي معها تزداد، وإذا حاولت إخراجي منها نهرتها واتهمتها بأنها لحوحة «ورزالة»، وإذا حاولت أن ترافقني إلى كل مكان أذهب إليه اتهمتها بأنها تخنقني وتكتم على أنفاسي، وازدادت أيضا إساءاتي لها بالشتم والألفاظ الجارحة والضرب أحيانا حتى احتاجت ذات مرة لأن تضع رباطا ضاغطا حول يدها بسبب إصابتي لها بجزع فيها، ورغم ذلك لم أصالحها وإنما بادرتني هي بالصلح كعادتها معي، وخلال ذلك حملت زوجتي في مولودنا الأول وفرحت بحملها كثيرا لأنه كما قالت سوف يقربني منها، ورزقنا بطفلة جميلة اهتمت بها كثيرا بغير أن تهملني ثم رزقنا بعد ذلك بطفلين وزوجتي على عهدها في معاملتها لي وأنا أيضا للأسف على طريقتي في التعامل معها، وبغير أن ينالها اليأس مني بل كانت تقول لي دائما أنها لاتحب الفشل وأنها ظلت طوال حياتها ناجحة في دراستها وفي عملها ولن تفشل معي ولا في حياتها الزوجية ولن تيأس من إصلاح طباعي وعاداتي التي لاترضيها، وتأكيدا لهذه الرغبة راحت تكتب لأهلها باستمرار عن سعادتها معي وتشيد بي وتنسب إلي أجمل الصفات والطباع، وتتحمل جفاء أهلي معها وتقول عن ذلك أيضا أنه لابد أن يأتي اليوم الذي تقدرها فيه أسرتي وتحبها.

وخلال خلافاتي معها ألقيت عليها يمين الطلاق مرتين رغم جزعها الشديد لسماع هذه الكلمة البغيضة وقسمها علي ألا أنطق بها مرة أخرى، ثم قررنا العودة للاستقرار في بلدنا بعد بضع سنوات في الغربة، وسعدت هي بهذا القرار كثيرا آملة أن تتحسن أحوالي معها حين أتخلص من مؤثرات الغربة السلبية على حالتي النفسية وأستقر في بلدي، ورجعنا فطلبت منها ألا تعمل وأن تتفرغ لرعاية أطفالنا فقبلت بذلك على الفور، ومنحتني توكيلا للسحب من رصيدها في البنك كما أشاء لتأثيث سكن الزوجية، وبالفعل اشترينا شقة جميلة بسيطة واشترينا سيارة وكل ماتحتاج إليه من أجهزة، وبدأ الأبناء يلتحقون بالحضانة والمرحلة الابتدائية.. وأنا كما أنا مع زوجتي، وأكثر من افتعال الأسباب للخروج من البيت وحدي.

ثم فجأة بدأت بعد عودتنا للاستقرار في بلدنا بفترة ألاحظ عليها بعض الاختلاف في شخصيتها وتصرفاتها معي عما كانت عليه منذ تزوجنا، فلقد بدأ كلامها أو بمعنى أصح توددها إلي يقل كثيرا عن ذي قبل، واختفت ضحكتها التي كانت لاتفارقها أبدا، ولم تعد تلح علي في تناول الطعام كما كانت تفعل دائما معي، بل أصبحت أرجع من عملي فأجدها قد تناولت طعامها، وإذا انتهت من أعمال البيت أغلقت عليها حجرتها وظلت تستمع وحدها للراديو بحجة أنها تحب الهدوء مع أنها اجتماعية بطبعها، وإذا اقتربت منها بكت، كما لم تعد تطلب مني العودة مبكرا في المساء لنجلس معا، وأصبحت تنام في غرفة الأبناء بحجة أنهم في حاجة إليها، وإذا رغبت في السهر معها في البيت رغبت هي في النوم، وإذا أردت الخروج معها كما كانت تود دائما فضلت البقاء في البيت، كما لم تعد تصالحني أبدا.. أو تسعى بالحاح لإرجاع المياه إلى مجاريها بيننا كما تعودت من قبل، وبغير أن أسألها تفسيرا لكل هذا التغيير في طريقة معاملتها لي وجدتها تقول لي بهدوء تام أن الكأس قد امتلأت عن آخرها ولم يعد بها مكان لأي مزيد وأنها تريد الطلاق مني بغير مشاكل لأن استمرار حياتها معي لن يحدها إلا بالمرض أو الموت، وذهلت لما سمعته من زوجتي.. وحاولت التقرب منها فوجدتها تواصل النفور مني وتقول لي أنها لاتعرف الوسط في مشاعرها وأنها كما أحبتني بشدة فقد كرهتني الآن أيضا بشدة، ولم تعد ترغب في الحياة معي، فشعرت بأشياء ثمينة تختفي من حياتي فجأة، وراجعت سنواتي معها فوجدتني لم ألق منها منذ عرفتها سوى الحب والتضحية في الوقت الذي لم أقدم إليها فيه سوى الاساءة والاهانة والتقصير في حقوقها، وأدركت متأخرا جدا للأسف قيمة ماكانت أستمتع به معها دون أن أعرف له قدره، إلا بعد أن حرمت منه.

وأنا أكتب إليك الآن لأسألك هل يمكن حقا أن تكون زوجتي قد كرهتني بعد كل هذا الحب الذي كانت تحمله لي؟

وماذا أفعل معها لكي أستعيد حبها وأجعلها تنسى كل ماقدمته إليها من إساءة وجفاء وإهانة على مدى السنوات الماضية، وبعد أن أصبحت هي التي تحاول الآن أن تفعل معي ماكنت أفعله معها من قبل من صمت وجفاء وتباعد؟

إن العجيب هو أنني قد شعرت فعلا بأنني أحبها الآن ولا أدري لماذا كنت أفعل معها ما فعلته وأريد أن أكفر عن أخطائي معها وأن تتراجع عن طلب الطلاق.. وهي من قرائك الدائمين.. فماذا تقول لي ولها.. وأنت المدافع دائما عن كيان الأسرة ضد الانهيار؟!

## ولكاتب هذه الرسالة أقول:

**كررت مع زوجتك للأسف ذلك الخطأ البشري القديم الذي عبرت عنه الجدة العجوز في رواية «عالم صوفيا» الفلسفية للكاتب النرويجي جاردر، حين أنبأها الطبيب بأنها قد مرضت مرض الموت الذي لا شفاء منه، فقالت في تحسر صادق:**

**ـ الآن أدرك روعة الحياة.. وجمالها!**

**وهو خطأ أزلي من أخطاء الإنسان نجد له في الشعر العربي القديم وفي أمثال الشعوب أكثر من تعبير عنه، وقلما نتعلم درسه قبل فوات الأوان. ولقد قرأت رسالتك هذه أكثر من مرة وأصارحك القول بأنه لولا خطها الرجالي الذي لاشبهة فيه، واسمك وعنوانك الصريحين عليها، لشككت في أن تكون زوجتك هي التي كتبتها إلي في محاولة يائسة وأخيرة لإصلاحك وإشعارك باحتمال فقدها إلى الأبد إذا أضفت نقطة جديدة من ماء المرارة إلى كأسها الممتلئة منه حتى حافتها، ولي بعض العذر فيما ساورني من شك في ذلك، إذ لم يتعود كثيرون أن يعترفوا بأخطائهم في حق شركاء حياتهم على طول الخط في مقابل الاعتراف لهم بمزاياهم وسجاياهم على طول الخط أيضا كما فعلت أنت في رسالتك، وبدون أية محاولة لالتماس بعض الأعذار لنفسك فيما فعلت أو لتبرير الأخطاء وبما يشبه التناقض الحاد بين اللونين الأبيض والأسود. غير أني قد استشعرت الصدق في رغبتك في استعادة زوجتك قبل أن تنقطع آخر خيوطها معك، وحجم ماتشعر به من ذهول حين بلغت زوجتك فجأة نقطة التحول في علاقتها بك، وفاض إناؤها بما فيه وطلبت منك في هدوء مريب الانفصال عنك رغم إدراكها جيدا أنه لو حدث ذلك فسوف يكون الفراق الأبدي الذي لاتلاقي بعده بينكما.**

**والحق أنني أشاركك استشعارك خطورة هذا الطلب وجديته.. وأكثر مايفزعني إلى ذلك ليس هو ما طرأ عليها من فتور وجفاء في تعاملها معك، وإنما أنها قد طلبت منك هذا الطلاق في «هدوء تام» وليس في ثورة هياج أو غضب عابر قد يدفع الإنسان للمغالاة في ردود أفعاله ثم لايلبث بعد انقضائه أن يرجع إلى جادة الحكمة والاعتدال، فالإنسان لايتخذ القرارات المصيرية بشأن حياته وهو في حالة الهياج العصبي والانفعال، ولو فعل ذلك لما تعذر عليه أن يرجع عنها حين يستعيد هدوءه واتزانه ورباطة جأشه، أما حين يطلب مثل هذا المطلب في «هدوء تام» فإنه ينبغي لنا بالفعل أن نتخوف من جدية مطلبه، خاصة إذا تمسك به، ولم يتزحزح عنه لفترة من الزمن.**

**ولهذا فإني أنصحك وقد بدأتما تتبادلان الأدوار والمواقع في علاقتكما الزوجية بعد طول سعي منها إليك وتباعد منك عنها، بأن تستعير أنت منها أيضا إصرارها السابق على إنجاح الحياة الزوجية بينكما وتفادي الفشل والانهيار فيها وأن تكافح معها كفاحا شاقا لإزالة المرارات التي ترسبت في كأسها الممتلئة منك، ولاستعادة طائر الحب الشارد إلى عشه القديم وليس ذلك بمستحيل في النهاية وإن لم يكن سهلا ولا ميسورا بغير عناء كبير، وكفاح صادق من جانبك لإقناع زوجتك بصدق ندمك على أخطائك السابقة في حقها، وصدق رغبتك في التكفير عنها، وبدء صفحة جديدة وواعدة بكل شيء جميل في الحياة معها.**

**وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم كما يقول المتنبي.**

**وعلى قدر أهمية الهدف الذي نسعى إليه يكون الجهد والصبر والإصرار على نيله. وإذا كانت زوجتك باعترافك قد تمسكت بالأمل بالرغبة فيك ست سنوات كاملة بعد القران، وبالأمل في إصلاحك واجتذاب مشاعرك إليها بلا يأس لما يزيد على ذلك بكثير بعد الزواج، فليس أقل من أن تبذل أنت أيضا بعض الجهد الشاق في استعادتها إليك والدفاع عن أسرتك الصغيرة وأطفالك ضد خطر الانهيار والضياع.**

**وأما تساؤلك: هل يمكن حقا أن تكون قد كرهتك بعد كل ماكانت تحمله لك من حب عظيم وما تبذله من أجلك من جهد وعطاء وتضحيات وسعي دءوب لاجتذابك إليها واسترضائك دائما، فليس ذلك بمستبعد للأسف ليس بالنسبة لزوجتك وحدها وإنما بالنسبة للإنسان بصفة عامة وللمرأة على وجه الخصوص. فالكراهية عند معظم علماء النفس هي الوجه الآخر للحب حين يلقى صاحبه عنتا شديدا وظلما بينا طويلا ممن يحب، وقليلون هم من يحتفظون بحبهم لمن يحبون مهما لاقوا منهم من إساءة أو جفاء أو سوء العشرة على المدى الطويل، وإذا كان الرجل أقل تحولا من الحب الشديد إلى الكراهية الشديدة، وقد يفقد حبه لمن يحب بغير أن تحل الكراهية الشديدة في قلبه لمن أحبه من قبل وعانى الكثير من جفائه معه، فإن المرأة كما يقول لنا علماء النفس أكثر قابلية للانتقال من حال الحب العنيف إلى حال الكراهية العميقة إذا امتلأت كأسها بالمرارة والاحساس المؤلم بالظلم والهوان على من تحب. وهي تستجيب في ذلك لمنطقها العاطفي الذي يصدر أحكامه على الأمور وفقا لما تشعر به من جاذبية تجاهها أو نفور منها في معظم الأحيان. ولهذا قال الشاعر الهولندي الأب كاتس في القرن الثامن عشر: لاتعرف المرأة سوى الحب أو الكراهية ويندر أن تعرف وسطا بينهما!**

**وقال الأديب الراحل مصطفى صادق الرافعي: أكبر خصيمين في عالم النفس متحابان تباغضا!**

**وحذرنا أهل الحكمة من الجموح الشديد في المشاعر سواء بالحب الأهوج الذي يعمي الأبصار عن الخطايا والعيوب، أو بالكراهية الشديدة التي تصد القلوب عن العدل والرحمة والرفق بالبغضاء.. فعسى ألا تكون الكراهية قد تأصلت بالفعل في قلب زوجتك تجاهك فأعمتها عن واجبها الإنساني والديني والأخلاقي تجاه أطفالها الثلاثة الذين لا ذنب لهم في «جاهلية» والدهم العاطفية السابقة، ولا في تمرد أمهم المفاجيء على «ذل» الحب القديم الذي لم يلق ممن أحبته إلا الإعراض والجفاء وسوء المعاملة، ولا في زهدها الصارم الآن في الاستمرار في استجداء المشاعر وتسول العطف والعدل وحسن المعاملة من شريك حياتها الذي كانت تغزل له ثوب الحب طوال السنوات الماضية بلا جدوى وكأنما قد أرادت بذلك أن تقول له مع الشاعر العربي القديم:**

**غزلت لهم غزلا رقيقا فلما لم**
**أجد لغزلي نساجا كسرت مغزلي**

**وعسى ألا يطول الوقت بمن كانت في مثل نقاء مشاعرها وأمانتها، قبل أن تسترجع طبيعتها المحبة المضحية الراغبة في السعادة ومنح الحب والعطاء لشريك حياتها ولأسرتها، وتتجاوز عما سلف منك تجاهها، وتمنحك فرصة ثانية لبدء صفحة جديدة معها واعدة بمحو الأخطاء القديمة وإدراك «روعة الحياة» التي لاندركها غالبا إلا حين تؤذن شمسها بالمغيب، ليس من أجل أطفالها الثلاثة أو من أجلك فقط وإنما أيضا من أجل الحب القديم الذي يفقد الإنسان بضياعه شيئا جوهريا ثمينا لايعوض وقد لاتتسع صفحة العمر للفوز بمثله مرة أخرى.**

**ولهذا فإني أرجو لها في النهاية ألا تكسر «مغزلها» أو تيأس منه إلى الأبد، وأرجو لك أنت أن تكون قد تعلمت «النسج» بالفعل لكيلا تضيع غزلها هدرا، وتبدد السعادة والأمان إلى الأبد من حياتك وحياتها وحياة أطفالكما الثلاثة.. والسلام..**